نقد

النقد

قراءة في..

المصطلح النقدي الإسلامي

مقدمة

لم يحظ موضوع نقد النقد بدراسة كافية شافية في المجال النقدي الإسلامي، فهو حقل مازال بكرا في الفضاء المعرفي الإسلامي. وتجلية معانيه وخصائصه تتطلب ركاما نقديا خصبا، لأن موضوع نقد النقد، كما هو معلوم، يتكئ على المادة النقدية التي استخلصت نتائجها من العمل الإبداعي، فهو إذن يشتغل أساسا على العمل النقدي ويسقط من اهتمامه العمل الإبداعي.

وليس غريبا أن يظل نقد النقد جنينيا في الثقافة العربية والإسلامية، لأن الثقافة العربية الإسلامية الراهنة يطغى عليها عنصر الإبداع، ولكنها تفتقر في المقابل إلى التنظير النقدي الجاد الذي يمحص الإبداع، ويصوغ على ضوئه نظرية أو نظريات نقدية. فالتفاوت بيّن وواضح للعيان بين الركام الهائل من الإبداع وبين التنظير النقدي، هذا الأخير الذي لا يخرج في عمومه عن انطباعات نقدية، أو ترديد بشكل فج ودون تمييز لما تنتجه ثقافات أخرى من نظريات أو مناهج واتباعها شبرا بشبر.

ليس الأدب الإسلامي وحده مسؤولا عن هذه الوضعية القلقة، بل النقد العربي عموما يغرق في هذه المفارقة بين الإبداع والتنظير النقدي. وهذا بشهادة كبار النقاد العرب أنفسهم لأنه إذا كانت أدوات إنتاج المعرفة ضعيفة في العالم العربي والإسلامي، فالنظرية النقدية ستكون بدورها واهية وضعيفة. فالنظرية النقدية مرهونة ومحكومة بأدوات إنتاج المعرفة التي لا تزدهر إلا في أجواء من الحرية والرخاء واحترام إنسانية الإنسان وكرامته. وعندما تحققت هذه الشروط في المجتمع الإسلامي قديما، وفي المجتمع الغربي الحديث نسبيا ازدهرت النظرية النقدية وطغت على العملية الإبداعية. بينما في المجتمعات التي تقيد فيها الحرية، فإن العمل الإبداعي يكون الأكثر بروزا. لأن الإبداع يصير ساعتها موضعا لتنفس أجواء الحرية والتعبير الذاتي عن الأشواق المكبوتة والتطلعات المصادرة..

لن نخوض كثيرا في البحث عن أسباب الضمور في النظرية النقدية العربية والإسلامية، أو في أسباب تخلف نقد النقد عندنا. ولكننا سنحاول في هذا البحث أن نرتقي المركب الصعب، ونغامر بأدواتنا المتواضعة في الإبحار داخل النقد الإسلامي، مرتادين آفاقه وتضاريسه، ملتذين بأسئلته الشيقة. لعلنا نسهم بهذا في تجلية بعض مفاهيم نقد النقد التي نرجو أن تتوسع أكثر على أيدي الدارسين والمهتمين بالتنظير النقدي الإسلامي. يحدونا إلى ذلك الأمل في غد مشرق جميل يهيمن فيه الإسلام بمنهجه في الحياة حتى تسعد في ظله البشرية ويصير الدين كله لله.

نقد النقد يحاول تطوير ممارسته النقدية من خلال أدواته ووعيه بموضوعه

بقلم: سعيد الوالي

■■ في ما هية نقد النقد:

سبقت الإشارة إلى أن موضوع نقد النقد هو النقد نفسه وعليه «فإن خطاب نقد النقد ينتج لغته حينما يقوى على تأطير موضوعه بأدواته النظرية والمنهجية والمصطلحية التي تميزه عن الخطابات الأخرى»(٢).

إن نقد النقد يحاول تأطير ممارسته النقدية وتطويرها من خلال تمحيص أدواته الإجرائية من جهة، والوعي بموضوعه من جهة أخرى.. وذلك في إطار العلاقة الموجودة بين الأدب والعلوم الإنسانية واللسانية.

ويعد علم المصطلح واحدا من الجوانب المهمة في خطاب نقد النقد، حيث يتم النظر في كيفية اشتغال هذا المصطلح في الخطاب النقدي. وكيف يحركه منتج الخطاب. ونحن في هذا الإطار سنحاول أن نقرأ المصطلح النقدي الذي أنتجته النظرية النقدية الإسلامية وتداولته في خطابها.

وبطبيعة الحال من الصعب الإلمام بكل المصطلحات في التنظير النقدي الإسلامي. ولكننا سنقف عند بعضها، وخاصة تلك التي تشكل البنية الأساسية والحلقة الضرورية التي تؤطر الخطاب النقدي الإسلامي. سنستحضر بالأساس مصطلح «الرؤية» ومصطلح «الجمالية» وما بينهما من تقاطع وترابط جدلي.

فكيف يتم توظيف هذين المصطلحين في النظرية النقدية الإسلامية. وما مدى انسجامهما مع الخط العقدي والفلسفي الإسلامي؟

ولكن قبل الحديث عن هذين المصطلحين وتجلياتهما في النظرية النقدية، لا بد من تحديد لماهية المصطلح نفسه، فماذا نقصد بالمصطلح؟

«يقصد بالمصطلح كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية معينة»(٣) والمصطلح بهذا المعنى «لغة واصفة ذات جوهر»(٤) ولكل مصطلح مرجعية وأصول فلسفية تقنن فضاءه وتحدد تخومه. ونقصد بالمرجعية الفلسفية تلك «اليقينيات الكبيرة التي تتعلق بالقواعد المسيطرة على الوجود وطريقة تسييره، والأصل الذي تنبثق عنه الأشياء ويتحكم فيها»(٥).

فالبعد الإيماني والأجواء الحضارية العربية والإسلامية هي الدماء الجديدة النقية التي يجب أن تؤطر فلسفة المصطلح لحظة تشكيله، والدفع به إلى ساحة النقد الأدبي الإسلامي.

■■ اشتغال المصطلح في الفضاء النقدي الإسلامي:

من المعلوم أن الأدب الإسلامي عمل منذ فجر تأسيسه على إنتاج خطابه المتميز والمستقل في التشكل والتنظير. ومن ثم بلور مشروعا نقديا تؤطره أدوات منهجية ومصطلحية مستمدة أساسا من عالم القرآن الرحيب، ومن الفكر الحضاري الإسلامي الذي لا يعرف التبعية لهذه الفلسفة أو تلك. وبتميزه وفرادته استطاع الأدب الإسلامي أن يصوغ خطابا إبداعيا ونقديا خاصا ذا نكهة مختلفة. وطرح نفسه كبديل يمتلك رؤية مغايرة للركام الموجود في الساحة العربية، التي فقدت مصداقيتها الحضارية حينما انسلخت عن ذاتها، وفضلت أن تذوب في الثقافة الحداثية – وهي دخيلة – بدعوى عالميتها وتقدمها.

لقد صاغ الأدب الإسلامي لغته الخاصة، وأصل لمنهج شمولي ينسجم ويتناسق في طبيعته مع النهج القرآني، لذا جاءت لغة هذا الأدب ونظيراته النقدية مثقلة وحاملة مصطلحات ذات طبيعة ومرجعية إسلامية. فكان مصطلح «الرؤية» و«الجمالية» من المصطلحات التي تم التأصيل لها داخل الإطار الإبداعي والنقدي، لما تتسم به من أبعاد وتداعيات دلالية وإيديولوجية إسلامية إن صح التعبير.

فالنقد الإسلامي طرح مصطلح «الرؤية» كثابت أساسي في العملية الأدبية، وهذا طبيعي؛ لأن النقد الإسلامي يصدر من خلال عقيدة لها تصورها الخاص للكون والحياة والإنسان، ولا بد من انعكاس هذه الرؤية العقدية على العملية الإبداعية، ولكن بعد أن يعيشها المبدع في كيانه الذاتي أولا وتصوره للوجود.

فما المقصود بالرؤية؟ وهل حضورها في مخيلة المبدع أمر ضروري حتى تستقيم التجربة الإبداعية؟ وهل توجد إبداعات بدون تشكيل رؤية فلسفية مسبقة؟ إن كل الفنون لها رؤيتها للحياة، بغض النظر عن طبيعة هذه الرؤية، فحتى الإبداع الذي لا يلتزم برؤية فلسفية محددة، بدوره له رؤيته الخاصة، وهي هذه العدمية والغبش الذي يحكم تصوره. فلا يمكننا إذن تصور إبداع خارج دائرة الرؤية. ومصطلح الرؤية يراد به – كما حددته النظرية النقدية الإسلامية – تلك المفاهيم والتصورات التي يصدر عنها الأديب في تأمله للوجود وعلاقته بالعالم(٦).

فالرؤية هي الأساس الفكري لكل عمل أدبي، بحيث لا يمكننا أن نتصور مصطلح الرؤية وهو غير مشحون بالإيحاءات الإيمانية التي تحرص النظرية الإسلامية في النقد على إبرازها وحضورها الجلي في التجربة الإبداعية. ولكن الرؤية لا يمكن التعبير عنها في شكل خطب وعظية أو تعليمية، وإنما تتجلى في أشكال تعبيرية مؤثرة وأخاذة، بمعنى ينبغي أن يتطابق المضمون – بما هو خطاب رؤيوي يراد تبليغه – مع أشكال تعبيرية تكون في مستوى جمالية المضمون الذي تحمله. فالأدب – كما يقول رينه ويليك – ينبغي أن يكون أمينا لطبيعته وإلا تحول إلى عمل

الأدب الإسلامي صاغ لغته الخاصة، ومنهجه يتناسق مع النهج القرآني

فكري بارد.

من هنا ندرك أن الأدب في المفهوم النقدي الإسلامي عمل رؤيوي في جوهره، ذو لغة خاصة، مما يجعل رؤية الأديب مغايرة ومختلفة في طبيعتها عن رؤية المفكر، لأن الأديب ينفعل بالرؤية وتذوب ذاته في هذه الرؤية، ويتوحد مع العالم فنيا، وبالتالي فهو يكتسب إدراكا فنيا يختلف جذريا عن الإدراكات الفكرية التي تخاطب العقل وتناقش الرؤية في طابعها التجريدي.(٧) إن الرؤية في النقد الإسلامي تكشف عنها لغة جمالية تهدف إلى إثارة وجدان المتلقي وتحريك ذوقه وشعوره كيما ينفعل وينسجم مع الخطاب الرؤيوي الذي يحاول المبدع إبلاغه عبر التجربة الأدبية. فالرؤية النقدية بهذا المعنى تضبط من خلال منطق وقوانين جمالية فنية، وليس من منطق اللغة العادية، أو اللغة الفكرية ذات النسق التجريدي.

وإذ تشكل الرؤية الموقف الفكري للأديب إزاء الحياة والكون والإنسان، فإن الجمالية هي الركن والأداة الفنية التي يعتمدها الأديب في التعبير عن هذه الرؤية. إنهما عنصران يغذي كل منهما الآخر وينصهران في بوتقة واحدة؛ لتنبثق منهما تجربة إبداعية راقية، تملك قدرة على التأثير والإقناع الفني» ولا بد من وجود الركنين: الرؤية والجمالية كي يتحقق مفهوم الأدب الإسلامي»(٨) والقدرة على تفعيل الرؤية جماليا، أي إخضاعها لعناصر وشروط الأدب، ليس عملا سهلا ولا أمرا هينا، ولكنها مسألة شديدة التعقيد، تتطلب قدرة على الإبداع والابتكار والتشكيل.

وبالنسبة للأديب المسلم الذي يتحرك وفق هذه المعادلة، فإن لقاءه المستمر بكتاب الله – كما يقول عماد الدين خليل – ودعوته الدائمة لإمعان النظر في خلق الله وآياته المنبثة في ساحات الكون والعالم والحياة، وتنفيذه لأمر الله في تزيين حياته وتجميلها، لهي جميعا من العوامل والشروط الضرورية لإيجاد المناخ المناسب لإبداع يكون في مستوى الرؤية العقدية التي يصدر عنها الأديب، ويستمد منها زاده. وقد علمنا رسولنا ومعلمنا عليه الصلاة والسلام أن الله يحب إذا عمل أحدنا عملا أن يتقنه، وأنه سبحانه كتب الإحسان في كل شيء.(٩)

ثم إن الجمالية في النظرية النقدية الإسلامية ليس الهدف منها البعد الفني لذاته، إنما هي جمالية مرتبطة بالحقيقة(١٠) ومهتدية إلى الفضيلة، ويراد منها أن تحقق منفعة ما في العمل الأدبي.

فهي إذن جمالية ملتزمة غائية، موجهة لخدمة أدب ملتزم هدفه خدمة الإنسان وتحريك أوتار فطرته كي تتفتح أبواب الإيمان أمامه، ومن ثم يهتدي إلى الحق الذي هو ذروة الجمال.

وهذا يشي أن الجمالية الإسلامية تهدف أساسا إلى إبراز الأبعاد القيمية في الوجود عبر الكتابة الأدبية «لأن القيم هي مقياس الجمال في نظر المسلم».(١١)

يقول المرحوم نجيب الكيلاني بهذا الصدد: «إذا كان الأدب أساسا هو التعبير الجميل، فإن الفكرة هي عماد العمل الأدبي، ولها هي الأخرى جمالها، لأن العمل الأدبي كل لا يتجزأ».(١٢)

إن الجمالية الأدبية هي في بعدها القيمي، حيث تحمل في طياتها ما يعمق الإيمان في قلب المؤمن ويقويه ويجعله وسيلة للسعادة في الحياة. ويصر عماد الدين خليل، على استثمار البعد القيمي في العملية الأدبية باعتبار القيمة «عنصرا يندرج ضمن السياق التداولي لكل خطاب، مهما كانت نوعيته ودرجته داخل المجال التواصلي»(١٣) فالجمالية كما يراها النقد الإسلامي يجب أن تكون موضوعية تخدم الفكرة وتنحاز في تشكلها لصالح الخير والعدالة والتحرر. فهي إذن جمالية حاملة للإيديولوجيا الإسلامية ومنافحة عنها. وهنا قد يعترض البعض وخاصة دعاة الفن للفن، كون الجمالية الإسلامية موجهة لخدمة الإيديولوجيا، فهؤلاء العلمانيون يرون أن الجمالية ينبغي أن تكون طليقة من أي قيد، ومرغوبة لذاتها. لا أن تكون أسيرة القيمة أو الإيديولوجيا، يقول كروتشه: «قد يبدو غريبا أو مثيرا للضحك أن نبحث الغاية في الفن».(١٤) هذه النظرية العلمانية للفن، هي نظرة تنطلق منها الفلسفة الغربية عموما، لأنها ترى الجمال في بعده المادي الحسي لا غير.

ومعروف أن الفلسفة الغربية لا تعير اعتبارا لأي قيم أخلاقية أو دينية، وبالتالي فهي فلسفة تقوم على اللذة الحسية التي أصبحت صنما يعبد من دون الله.

والذين ينطلقون من هذه النظرة العلمانية غير موضوعيين في اعتراضهم على الجمالية الإسلامية، لأن هذه الأخيرة لها خصوصيتها الذاتية المتميزة. فالجمالية الإسلامية ليست أشكالا مزخرفة فقط، ولا أساليب تقريرية يتضخم فيها المضمون، بل هي تحقيق لمعادلة صعبة يتساوق فيها الفنان المسلم مع سائر الخلائق في الوجود، فتأتي الجمالية عندئذ صافية حلوة المذاق، لأنها تصدر عن نفس تعيش تجربة الإيمان ولا تدعيها.

بهذا الوضوح إذن تتشكل الجمالية في النقد الإسلامي، كونها جمالية ينصهر في بوتقتها وجدان الأديب بشفافية الكون وتناسقه الجميل المتعبد لله. «وبين هذا وذاك – يقول عماد الدين خليل – يتدفق الأدب الإسلامي شعاعا ورديا، يغني للتناغم والتآلف والإنسجام».(١٥)

■■ نحو آفاق جديدة للمصطلح:

عودا على بدء، نشير إلى أننا في هذه المرحلة من تطور أدبنا

الإسلامي في حاجة إلى أن نوسع من دائرة التقعيد والتنظير له.

فبالرغم من وجود كم هائل من المصطلحات في تراثنا فإن الناقد الإسلامي الذي يروم التأصيل لنظرية نقدية، لم يلتفت بالشكل المطلوب إلى هذا المخزون المصطلحي وكيفية تطويره ليلائم النظرية الإسلامية الحديثة. وهذا الانقطاع قد يؤدي إلى عجز مصطلحي في النقد الإسلامي، ومن ثم إلى وجود ثغرة في النقد، هي مشكلة المصطلح. وللخروج من هذا العجز المصطلحي لا بد لنقادنا من الانكباب على إعادة قراءة المصطلح العربي الموروث وبث روح العصر فيه وفق معايير إسلامية خالصة.

ونحن إذا ما نظرنا إلى المذاهب الفكرية والفلسفات الغربية الحديثة من ماركسية ووجودية ومثالية وغيرها نجدها كانت مرجعا ومصدرا أساسيا للنظريات النقدية، حيث تستمد منها رؤيتها للحياة، وتستعير منها مصطلحاتها بكل حمولتها الإيديولوجية، لتصبح مصطلحات نقدية صرفة. ففي الواقعية الاشتراكية أو البنيوية التكوينية مثلا نجد مصطلحات من قبيل «الانعكاس»، «التشيؤ» «الصراع الطبقي»، «الوعي القائم»، «الوعي الممكن» وغيرها، هذه المصطلحات التي تجدها في النقد هي عينها التي أنتجتها الفلسفة الماركسية وبنفس الأبعاد والدلالات.

وإذن ما أحوجنا نحن إلى استلهام لغة قرآننا العظيم، وما يمكن أن ننهل من معينه من مصطلحات، وهناك مصطلحات يمكن اشتقاقها واستنباطها من مفاهيم إسلامية بحتة مثل «الشمولية» و«الإيجابية» و«الإيمانية» و«الإنسجام» وغيرها. وقمين بهذه المصطلحات ذات النبرة والإيقاع العقدي الإسلامي، أن تصبح مصطلحات نقدية تتحرك في الفضاء النقدي الإسلامي بكل شحنتها الإيمانية وبعدها التداولي الفلسفي. ويحضرني هنا مشروع الأستاذ محمد إقبال عروي وهو يغامر بالتقعيد لمصطلح «الكادية»(*)» وتأصيله في النقد الإسلامي (١٦) وهي محاولة جريئة ينبغي تطويرها والنسج على منوالها.

إن مشروع إعادة قراءة المصطلح وتأصيله ليس مشروعا سهلا كما قد يبدو، لأن تشكيل المصطلح وضبطه حضاريا يتطلب قدرة فائقة على الاستنباط للموروث وهضمه من جهة ، واستيعاب لروح العصر وامتصاص لثقافته من جهة ثانية، إضافة إلى هذا نحن في حاجة إلى فتح نوافذنا كي نطل على ثقافة الأمم الراهنة لنستفيد من تجاربها «مع التحصن – كما يقول عماد الدين – بعوامل الصحة والعافية والسلامة الفكرية والوضوح العقائدي».(١٧) فالثقافة الإسلامية عموما لا تنمو في أرض جرداء أو في جزيرة معزولة ومقطوعة عن باقي الثقافات، إنما كانت دوما كونية في طبيعتها، متفاعلة باستمرار مع باقي الثقافات المعاصرة لها، ولكن دون استلاب أو فقدان للهوية.

وحينما انتشرت وسائل الاتصال الحديثة، وتقاربت المسافات بين الشعوب، أصبحت عملية المثاقفة والتفاعل أمرا حتميا لا يمكن تفاديه.

بهذا وحده ـ استحضار التراث الحضاري واستيعاب الحاضر ـ تستطيع النظرية النقدية الإسلامية أن تستقيم، وتشكل نسقا مصطلحيا متميزا يجعلها في مصاف النظريات النقدية الكبرى.

تشكيل المصطلح وضبطه حضاريا يتطلب قدرة على هضم الموروث ومعرفة لغة العصر

■■ الهوامش:

(*) راجع في هذا المصطلح المقترح مجلة الأدب الإسلامي – العدد السادس صفحة ١٦ وما بعدها.

١ – انظر: حوار مع جابر عصفور. مجلة المنهل ع٥٣٠ المجلد ٥٧ ص١٢٦.

٢ – أحمد بو حسن: مدخل إلى علم المصطلح: مجلة الفكر العربي المعاصر عدد٥٠-٦١ ص٨٩.

٣ – المرجع نفسه ص٨٤.

٤ – المرجع نفسه ص٨٤.

٥ – د. عبدالباسط بدر: «النقد التنظيري عند الكيلاني». مجلة الأدب الإسلامي عدد ٩-١٠ ص١٥٨ – رجب – ذو الحجة ١٤١٦هـ

٦ – انظر: محمد قطب. منهج الفن الإسلامي. وخاصة فصل: طبيعة العصور الإسلامية ص١٦.

٧ – د. أحمد الطريسي: الظواهر البلاغية ومستويات الإدراك في العمل الشعري. مجلة المناظرة. العدد ٤ ص٣٩ شوال ١٤١١هـ

٨ – د. عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي» ص٦٩.

٩ – المرجع نفسه، ص٧٤.

١٠ – د. نجيب الكيلاني: مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص٩٣.

١١ – د. بن عيسى باطاهر: «نجيب الكيلاني والرؤية النقدية الإسلامية». مجلة الأدب الإسلامي، العددان ٩-١٠ ص١٦٣.

١٢ – مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص٩٤.

١٣ – محمد إقبال عروي: في نقد النقد الإسلامي». مجلة الأدب الإسلامي. ع٦ ص١٧.

١٤ – عز الدين إسماعيل: «الأسس الجمالية في النقد العربي». دار الفكر العربي بيروت ١٩٦٨م، ص٨٦.

١٥ – د. عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، ص٨٧.

١٦ – انظر: محمد إقبال عروي. مجلة الأدب الإسلامي. ع٦ ص١٦.

١٧ – عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب.. ص٧٧.

مسرحية شعرية

وصيه

أبي أيوب الأنصاري

د. غازي مختار طليمات

المشهد الأول

«يكشف الستار عن قاعة كبيرة، يتصدرها فارس عربي الزي والسلاح، ويقف بين يديه رجلان مكتهلان، تكتنفهما الهيبة»

أحد الرجلين متجها إلى الفارس:
إيه سفيان بن عوف، ما الخبر؟
فيم تدعوني؟
وتدعو ابن عمر؟
وكلانا زاهد في الأمر

سفيان بن عوف: لم تدعيا للحكم
فالأمر أمرٌ

الرجل: ألفتوى أم لبلوى؟

سفيان: بل إلىَ خطر ترهبه

عبدالله بن عمر: وأيّ خطر؟
أعنَيْتَ الغزو؟
(سفيان يهز رأسه موافقا)

ابن عمر: ما المرّ الذي فيه؟

سفيان: كأس الموت

ابن عمر: أهلا بالقدر!!
إنها الجنة
يا شوقي إلى من قضوا
قبلي في كرّ وفرّ
يا ابن عباس تجهّزْ

الرجل الأول أي عبدالله بن عباس:
جاهزٌ
حسبي الفيصلُ والمهرُ الأغرّ

ابن عمر: ومتى الغزو؟

سفيان: غدا نمضي إلى شاطئ
البُسفور في بحر وبرّ
جنّة الدنيا

ابن عمر: وُعدنا جنة غيرها
لم يرها قطّ بشرْ

ابن عباس: فإليها، لا إلى تلك الخطا
وهي لا الفوتُ من الموت الظفر

[يقتحم القاعة من باب جانبي شيخ يتوكأ على عصا، ويشده حارس ليخرجه من القاعة]

الشيخ: أيها الحارس، قد أوجفت كفي
لا تسرْ كالظل خلفي
دع يدي، قد قلتُ دعها
أين سفيان بن عوف؟

سفيان: من؟ أبو أيوب؟

سفيان للحارس: يا أرعن قد آذيت ضيفي
عُد إلى الباب
ولا يدخل من القوم أحد

سفيان لأبي أيوب: مرحبا سيّد الأنصار
ما حال البلد؟

أبو أيوب الأنصاري: مرجلٌ، من تحته نارٌ، وأعلاه زبدْ
أشعل النزوُ إلى الغزو هشيمي، فاتقد
إن روحي بنت عشرين
فلا تنظر إلى عمر الجسد
كيف تخفي خبر الحملة عني
كيف تخفي؟

سفيان: خفت أن أعنف بالشيخ

أبو أيوب: هُراء، أي خوف
أي عنف
أنا تربُ الحرب والزحف
فهل تنكر زحفي؟
ومتى خفت على مثلي؟
وهل أقعدني شيبي وضعفي؟
إن في الأمر لكيدا!!

سفيان: لا، فسفيان بن عوف لا يكيد

أبو أيوب: أنا لا أرميك ، بل أرمي يزيد
[فجأة يدخل القاعة شاب موفور الصحة، أنيق الزي، وسفيان لا يراه]

سفيان: ويلتا!! ما قلت

يزيد وقد توسط القوم: يرميني

سفيان: أترمي ابن أمير المؤمنين؟

يزيد بن معاوية: بم ترميني يا شيخ؟

أبو أيوب: بإبعادي عن الغزو،
عن الفتح المبين
باطراحي في حمى جلّق مفلول اليمين

إنني أقسمت أن أنفر ما عشت
خفيفا وثقيلا

يزيد: والثمانون التي تحملها!!
قلت: خفيفا وثقيلا

أبو أيوب: هي عمري
وجناحاي إذا رُمْتُ إلى الروم وصولا
وسواء أن أكون القاتل الظافر
والشلو القتيلا

يزيد: إن تحاملت على نفسك كي تقتل حملك
وتجاهلت الثمانين التي تلتف كالأقياد حولك
فلمن نترك أهلك؟

أبو أيوب: للذي يرزق من يخلق
لا ينسى عيالا ومعيلا
للذي من غير أن أوكله
كان وما زال وكيلا
أتظن الناس كل الناس مثلك؟

يزيد: ما الذي تعنيه؟

أبو أيوب: قد ردّدت قولك

يزيد: أي قول؟

أبو أيوب: أمّ كلثوم بما أعنيه أدرى
عانق الزوج
ودعني أعتنق سيفا ومهرا
واترك الغزو لجند الله
هم بالغزو أحرى

يزيد: أنا لا أنكر ما قلت
ولكني ظننت الأمر سرا
وأبي أمطرني سُخرا وتقريعا وزجرا
أفلا تغفرها لي؟

أبو أيوب: بلى أغفر إن أبصرت فعلك

يزيد: ستراني يا أبا أيوب
أغزو الروم قبلك
فتأهب

أبو أيوب: قد تأهبتُ
إذن أعطيتَ سُؤلك
وغدا تبصرنا الساحُ
فتدري أينا في الكرّ أضرى

المشهد الثاني

[يُكشف الستار عن خيمة عسكرية، يرقد على سرير فيها جريح محموم معصوب الرأس، وهو أبو أيوب، وإلى جواره ابن عباس وابن عمر، وخلف الخيمة لوح كبير رسمت عليه معالم القسطنطينية سورها وقلاعها وكنائسها. وحول الخيمة خيام أخرى فيها جنود يصطلون ويشحذون سيوفهم قرب النار، ويظهر في المشهد عبدالله بن عباس ممسكا بعضدي أبي أيوب، وهو يرتعد من الحُمّى]

عبدالله بن عمر: يا ابن عباس ترفق بأبي أيوب
فالشيخ عليل

ابن عباس: إنه يهذي من الحمى

ابن عمر: ستخبو نارها عما قليل

أبو أيوب بأنفاس متقطعة: لا تردوا موكب الهجرة عن داري
أهلا بالوفود
ابركي يا ناقة الوحي على بابي
والناس شهود
ابركي، وليرتحل عن يثرب الغراء
أحبار يهود
لفظتهم أرضنا عنها
فهم حيث يعيشون فلول

ابن عمر: بم يهذي؟

ابن عباس: ليتني أهذي بما يهذي

ابن عمر: أتدري ما يقول؟

ابن عباس: تتجلى لأبي أيوب أنوار الرسول
فيناجيه مناجاة خليل لخليل

يدخل يزيد مترفقا وابن عباس يقول:
كالذي هيأ للرحلة عن عالمنا زاد الرحيل

يزيد: أتراه راحلا

ابن عباس: رحلة وامق

أبو أيوب يبسط يديه ويتابع ابن عباس: أبصر المحبوب
فامتدت يداه ليعانق
إنه، إن صدق الظن، مفارق

ابن عمر ويده على جبين أبي أيوب:
زايلته وقدة الحمّى
صحا، أو كاد يصحو

يزيد مشيرا إلى رأس أبي أيوب:
يا أبا أيوب أين الكر؟
هل أقعد ترب الحرب جرح

أبو أيوب يتناهض:
من؟ يزيد ابن أمير المؤمنين؟

يزيد: عائدا جئتك أستنصح
هل لي عندك الليلة نصح
صادعا بالأمر إن تأمر
معينا شيخنا إذ يستعين
مر.. أجب

أبو أيوب:
استغفر الله، أتنسى الله رب العالمين
فهو الآمر، لا أنت، جميع الآمرين
وهو لا أنت المعين

يزيد: أوصني

أبو أيوب: أوصيك أن تدفن جسمي

يزيد: أين؟ في أرض البقيع؟

أبو أيوب: لا،

يزيد: أفي مكة أم في القدس أم قرب الشفيع؟

أبو أيوب: لا،
أبو أيوب لا يطمع في تلك الربوع

يزيد: أولا تعصف بالشيخ إلى أحبابه ريح الحنين؟

أبو أيوب: كل يوم، كل حين
غير أني نهب إعصار أشد
ليس لي في دفعه عن جسدي الموهون يد
عاصف يقذف آمالي إلى أفق بعيد لا يحد
كلما بلغني أفقا مديدا
لاح لي أفق أمدّ

يزيد: عادت الحمى
أبو أيوب يهذي هذيان الذاهلين

أبو أيوب:
منذ أن شرّفت الهجرة داري
لم تفتني قط هجرة
منذ قال الوحي للناس انفروا
أنفذت أمره
فحياتي نفرة تعقب نفرة
فدعوني نافرا حيا وميتا
واجعلوا الهجرة قبري
بعدما حلت على بيتي بيتا
واسكبوا سُؤْر دمي
دون نار الغزو زيتا

يزيد: كيف يغزو المرء إن أصبح شلوا؟

وهوى عضوا فعضوا
أي لغز ذاك؟
أبو أيوب: لا ألغز، بل أطلب غزوا
أو ما قلت: أتوصيني وصية؟
قلت، لا أنكر، لكن ما الوصية
أبو أيوب: هي ما قلت
يزيد: كفى هزءا ولغوا
أبو أيوب: لست ألغو
ومتى كان اختيار القبر لغوا؟
إن أمت فامضوا بجثماني
يزيد: إلى أين؟
أبو أيوب: إلى الأرض الرضية
يزيد: أإلى دارك؟
أبو أيوب: لا، داري قصيّة
يزيد: أإلى جلّق؟
أبو أيوب: لا، جنبني؟
هي دار العاشقين العيش
لا مدفن عشاق المنية
يزيد: فإلى أين إذن نمضي؟
أبو أيوب: إلى قسطنطينية
يزيد: أعفني من مطلب
ناجيتني في أمره أصعب نجوى
أعفني لست الذي يشهد في هذي الوصية
أوص غيري
وسأوصي أن يخطّوا في ثرى جلّق قبري
يا ابن عباس، أبو أيوب يهرف
فهو يوصيني وصاة لا تشرّف
ابن عباس: أنت لا تدرك مرماه
ومن يدركه يعرف
يزيد: هات، عرّفني
ابن عباس: أبو أيوب ماض في الجهاد
يزيد: أو بعد الموت؟
ابن عباس: بعد الموت، من غير ارتداد
درعه الأكفان، والنعش الجواد
وسيغدو قبره حصنا
على كل حصون الروم يُشرف
فإذا ارتد عن الساح جبان
أبصر القبر فعاد
صاعدا في كل طود
هابطا في كلّ واد
مدركا ثأر أبي أيوب
مشبوب الحمية
أبو أيوب: يا ابن عباس، أبو أيوب لا يطلب ثأرا
بل يمدّ الجسد الفاني للآتين جسرا
إن بدا اليوم ضريحي لبلاد قد فتحناها النهاية
فغدًا يغدو البداية
منه تمضي راية الفتح إلى أشرف غاية
يزيد: أي فتح يا أبا أيوب تعني؟
أي راية؟
أبو أيوب: نشر نور الله خلف السور أو خلف المضيق
فإذا الخصم الذي يكره ما نهوى صديق
وإذا الأعداء إخوان وأعوان لنا في كل ضيق
يحملون الوحي للحُمر وللشقر هداية
يزيد: أتظن الروم يوما مهتدين؟
أبو أيوب: إن هدينا يهتدوا
يزيد: ظنٌ، وما جدوى الظنون؟
أبو أيوب: هبه ظنا أو سرابا
فعلينا جعله عين اليقين
يزيد: كيف يغدو الظن حقا؟
ويفيض البرق وَدْقا
ومتى يصبح هذا الأمل المرجو صدقا؟
أبو أيوب: حين تحويه قلوب الصادقين
ويكون الهدف الأول للغزو انتصار المخلصين
وبذا يمسي أمير الدين والدنيا أميرُ المؤمنين
يزيد: أوما للفتح حدّ من مكان وزمان؟
أبو أيوب: حدّه أن يسمع المشرق والمغرب ترجيع الأذان
وتظل الأرض كل الأرض رايات الأمان
حين ذاك
يترك الناس العراك
وترى السيف سوارا
وسهام الموت أعواد أراك
يزيد: ربما طال بما تأمل يا شيخ الأمد
أبو أيوب: أنا لا آمل، بل أنقل وحيا لا يُرد
إن تهاوى والد في ساحة هبّ الولد فليطل
قد فرض الفتح على أمتنا
حتى الأبد
إننا إن ننصر الله انتصرنا
يزيد: وإذا لم ننصر الله
أبو أيوب: انحسرنا واندثرنا
كلنا في قبضة الله رهين
يزيد: أولا يرعبك المصرع قبل الفوز بالنصر المبين؟
أبو أيوب: لا،
فإن أقض فلي الجنة من بعد الشهادة
أو أفز بالفتح
فالفتح إخاء لا سيادة
فيه أجني مع من أهديت إيماني
أمانا وسعادة
أغريب أن يُرى قبري جسرا لعبور الزاحفين؟
ابن عمر: لا، وقد يغدو منارا لسفين الفاتحين
ومزارا، يلهم الأجيال حب الموت
حينا بعد حين
يزيد: سوف يغدو ما تظنان
أبو أيوب: إذن حقق وصاتي
واطرح تحت خطا الماضين للفتح رفاتي
يزيد: كيف أفتي وابن عباس هنا وابن عمر؟
أفتياني في وصاة الشيخ
ابن عباس: لم يوص بشرّ
ابن عمر: بل بخير أبديّ، وبِهَدْي مستمر
ابن عباس: أعطه ما شاء
يزيد: أعطيه وفي القلب التياع
كالذي يلقي رضيعا من بنيه
بين أنياب السباع
أبو أيوب: ألقني وارجع
فإني لن أُراع
يزيد: لك ما شئت
أبو أيوب: إذن وجه إلى الغرب الأعنة
يزيد: لك ما شئت، نعم، من غير منّة
أبو أيوب وهو يعود إلى مضجعه:

فدعوني أسلم الروح إلى الله
ونفسي
مطمئنة

(يرقد أبو أيوب) ابن عمر: ما الذي
يكفل ألا ينبش الروم الضريح
ليهينوا الجسد الطاهر
والرأس الجريح
ضاحيا تلفحه رمضاء
أو تذروه في الآفاق ريح

يزيد: لأبي أيوب ما شاء
فطمئنه

ابن عباس وهو يهز أبا أيوب:
كأن الشيخ مات

يتفحصه ابن عمر:
مات لكن بعث النخوة في الأرض الموات
مات والنصر على عينيه وضّاح السمات

يزيد: جهز الشيخ ابن عباس
جهاز الشهداء
وجهاز الأمراء
فهو مبعوث الهدى العُلويّ
قد سافر يمحو الترهات
ينشر الأنوار في الأسفار
يجتاح الجهات

ابن عمر: والرسول الحامل الناقل
للأعداء أضواء السماء
والسفير الميت الحي
إذا عزّ لدينا السفراء

يزيد وهو على رأس أبي أيوب:
يا أبا أيوب، إن ترحل إلى القبر خفيفا
فلقد حملتنا عبئا مدى الدهر ثقيلا ومخيفا
أترانا نعشق الزحف الذي تعشق
أم نخشى الحتوفا؟

ابن عباس: مالنا بدّ من العشق إذا اخترنا البقاء

ابن عمر: عشقه فرض
وما في الفرض رفض
أو حوار وانتقاء
فليكن قبر أبي أيوب في تاريخنا الطود المنيفا
ولنسر منه إلى أقصى الميادين ألوفا
نحمل الراية للغاية حمل الأوفياء

العزف..
على ضمير المخاطب

شعر: أحمد عبدالحفيظ شحاتة*

أما زلت تهفو؟!
ويمرحُ بين خلاياكَ طيفُ؟!
أراك تخيّرتها،
وتهللتَ في زهر مقلتها،
وانتشيت بها،
وانسكبت على لؤلؤ
في ندى صوتها وصباهاً
تناسقت في خطوها،
واتسقت ببهجتها،
أنت لم تُنكر الدلّ،
جُبتَ المدائنَ، بحر الرمال،
تكسّرت، قمت، انثنيتَ،
انشطرت،
تلاشيت، ذبت، تجمّعت في
جذوة،
قُبلة، جمرة،
وتشامختَ حدّ التكامل
فاعتدلتْ
ضفتاكَ
عبرتَ إلى أفق لا يراهُ سواكَ
على لؤلؤ من فؤادك
جرحَ السؤال
تغنى اليمامُ بخطوكَ
حين انخطفت لميقاتها
طائرا من هديل
وحلم فرح!!

□□□

تسللت مني إليها
ولم تترك البحر رهوا
وراءك
لم تسترح -
وحادثت عنها بحار الندى
فأطرق حولكَ منكَ الذهولُ،
تغنت بوجهك فيك السهولُ،
وقام النخيلُ،
تزاوجت بالنور كالألق
الحيّ،
همت كشبّابة،
في شذى دمعها
تستجيش هوى بالمدار
الفصولُ

□□□

ومازلت تهفو!!
ويمرح بين خلاياك طيفُ!!
وما زال للبحر والحبّ
والأغنيات
خيالك طيرًا يرفّ!!
وما زال للحبّ بين حناياك
دفّ
ألا عدت يا أيها المستخف
فما لك في الأرض وصفُ
وما لك من سابقٍ
ذاع صنفُ!!

□□□

* شاعر مصري، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، صدر له ديوان «أغصان الضوء»